كلمة التاريخ

سقط اليسار فى الانتخابات بجدارة.

والخبر ليس جديدًا.. فاليسار يسقط فى الانتخابات فى أى مكان من العالم.. وهو يتراجع فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأسبانيا.. وهو يفقد مقاعده فى كل بُرلمان.. ويفقد سمعته أيضًا.. ويفقد شرفه ورسالته..

والرفاق يتساءلون عن السبب..

كيف يحدث هذا الفشل وهم حملة لواء التقدمية، والعدالة الاجتماعية، والمساواة، وحرية المرأة، والعلمانية.. إلخ.

والسبب هو تقدميتهم ذاتها.. وعدالتهم، وعلمانيتهم، وحرياتهم..

فما هو مدلول التقدمية عندهم؟

ومتى تكون الأسرة تقدمية فى نظرهم؟

الأسرة تقدمية جدًّا حينما لا تجد فيها بيتًا، فالرجل فى الشارع، والمرأة فى المصنع، والأطفال متروكون فى دار حضانة،

والأب والأم مُلْقى بهما فى دار للمسنين (لأنه لا يوجد أحد فى البيت لرعاية أحد) فالزوج يشتغل سائق قطار، والزوجة تشتغل سائقة تاكسى (مساواة) فهى امرأة تقدمية وليست رجعية تربى أطفالا أو ترعى زوجًا.. فهم يرفضون أن يكون نصف المجتمع الحلو عاطلًا فى البيوت.. والنتيجة أن الجيل الجديد يتربى فى حضن الشغالات، والجيل القديم يموت من الإهمال فى الملاجئ.

والعدالة الاجتماعية عندهم بلغت غايتها، فالعمال والكادحون يقفون فى طوابير ليشتروا الكرنب بالبطاقة، وأعضاء الحزب الاشتراكى يأكلون الكافيار ويركبون عربات الزيم الفاخرة، وبرجنيف (كمثال) كان يمتلك جاراجًا به أكثر من عشرين عربة فاخرة من أغلى وأفخر الرولز رويس والمارسيدس والليموزين.. تلك عدالتهم من واقع دفتر أحوالهم نفسه.

وحضرة التقدمى يفتخر دائمًا بأنه علمانى، ومعنى علمانى أنه لا يؤمن إلا بهذا العالم وهذه الدنيا، ولا يعمل إلا من أجلها.. أما حكاية الآخرة والله والحساب والعقاب فهى سذاجات يتركها لأمثالنا من السذج، وإذا حُوصر بالأسئلة قال فى حرج: إن هذه مسائل غير مطروحة.. وغيبيات.. وهو يفضل أن يعيش يقظًا منتبهًا لا مخدورًا غارقًا فى الغيبيات.

وأئمة اليقظة وقادة الانتباه الذين اتخذهم مثالا وقدوة.. هم ستالين.. (رجل قال عنه رفاقه السوفييت: إنه سفاح، وإنه قتل

عشرين مليونًا فى السجون. وقال هو عن نفسه: إنه أعدم خمسة ملايين فلاح رفضوا الاشتراكية والكوميونات).

وحضرة التقدمى ناصرى، مثاله الأعلى فى بلادنا جمال عبد الناصر.

وجمال عبد الناصر قائد كبير نعرفه، ونعرف أعماله، فقد أخرج الإنجليز، وأمم القنال، وأعلن الوحدة، وحقق المجانية، وطبق الإصلاح الزراعى مع بعض التعديلات البسيطة. فقد أخرج الإنجليز وأدخل اليهود، وأمم القنال وردمها، وأعلن الوحدة العربية فى الجرائد، وحقق التمزق العربى فى الواقع، وكرس الانقسام إلى يمين ويسار، وإلى رجعية وتقدمية، وإمبريالية واشتراكية فأصبح اليمن الواحد المتحد دولتين متحاربتين، يمن شمالى ويمن جنوبى، والشرخ الذى حدث فى اليمن امتد إلى كل قطر وإلى كل دولة، عربية وإفريقية، بل إلى كل أسرة، فتحول الكل إلى أعداء يأكل بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا تحت مظلة من الحقد اسمها الصراع الطبقى.. صدَّقَ عبد الناصر كلام الماركسيين بأنها تدفع بالتاريخ إلى الأمام وهى تدفعه إلى حتفه.. ومازالت هذه النار ترعى فى هذا العالم النامى وتأكل أخضره ويابسه، فلا تثمر إلا أزمات وفتنًا، وانقلابات وديونًا، وهبوطًا فى الإنتاج، ونظمًا قمعية، وحكومات بوليسية.

وأعلن عبد الناصر مجانية التعليم لتثمر قراراته عكسها تمامًا

اللامجانية واللاتعليم، ودروسًا خصوصية أضعاف المصروفات القديمة.. وانحدار مستوى التعليم الجامعى ينزل بالجامعة إلى مستوى المدارس الثانوية وأقل.. وهى نتائج طبيعية لقرار فج لم يواكبه تهيئة لإمكانيات، أو رصد لميزانيات.. فكان هذا القرار فى بلد مفلس هو نوع من الفشر، لإرضاء غرائز الشارع، وتملق الغوغاء.

وجاء عبد الناصر بالإصلاح الزراعى ليضاعف الإنتاج، فإذا به يخسف بالإنتاج كمًّا ونوعًا، وإذا بنا نستورد القمح ونتسول الرغيف.

وأدى غياب الديموقراطية على مدى العشرين عامًا من حكم عبد الناصر إلى غلبة قيم النفاق، والانتهازية، والسلبية، والتواكل، واللامبالاة، وعدم الانتماء، وإلى تآكل الشخصية المصرية، وإصابتها بنوع من الإيدز السياسى الذى لا برء منه.

وأدت أبواق الاشتراكية التى راحت تنفخ فى نار الصراع الطبقى وتزيدها سعارًا إلى سقوط هيبة الكبار، وإلى ميلاد مجتمع الحقد الذى يأكل بعضه بعضًا بلا أمل فى نهاية.

وقالوا: إن الرجل برىء ولكن الذنب ذنب أعوانه وحكومته.

ونسألهم ببراءة أيضًا.. من اختار أعوانه؟ ومن عين حكومته؟.. من سواه؟!

وهل كان لسواه اختيار؟

وجاءت هزيمة ٦٧ واحتلال سيناء، وما أعقب ذلك من خراب اقتصادى، ليؤلف علامة استفهام هائلة.. هى: لماذا قتل من قتل؟ ولماذا مات المئات من التعذيب فى السجون؟ ولأى قضية ثم علامة استفهام أكبر..

لماذا صاحبنا التقدمى ناصرى؟

وماذا تعنى كلمة ناصرية؟

وإذا كانت تعنى السد العالى فإن نفق المترو وحده بأعماله الخرسانية، مضافًا إليه عشرات الكبارى، والمصانع والسنترالات، ومحطات توليد الكهرباء، والموانى الجديدة، والمدن السكنية، والوادى الجديد، وتوسيع القنال، وغزو الصحارى، والتنقيب عن البترول.. إلخ.. إلخ.. وهى أضعاف السد العالى من ناحية الحجم الإنشائى، ومن ناحية الأثر.. ومع ذلك فقد تمت جميعها بدون أن نرى حسنى مبارك يقتل أحدًا، أو يسجن بريئًا أو يعذب مخالفًا له فى الرأى.

ولكن المسألة ليست مسألة السد العالى ولا التصنيع.. ولا شعارات العدالة الاجتماعية الجوفاء.. وإنما السر شىء آخر..

السر هو لذة الانفراد بالحكم، والاستعلاء، والتأله، والتسلط.

لذة التحكم فى رقاب الناس، وهذه اللذة هى التى يسيل لها

لعاب تلك السلالة، التى لا تجد لها إمامًا تسير خلفه إلا ستالين وأمثاله.

ألم يقل عبد الناصر للقذافى:
إنى أرى فيك شبابى؟

وقد علقها القذافى على باب طرابلس. وهو يعمل بها، ومازال يعمل بها. ومثله عبد الكريم قاسم وحافظ الأسد والنميرى.

إنها سلالة واحدة.
نفوس بها هوس للسلطة والتحكم.

إن إخواننا الشيوعيين والناصريين الذين سقطوا فى الانتخابات يدقون الطبول وينفخون الأبواق ليرددوا الكلام القديم المكرر، عن تزييف الانتخابات، وتزوير الأصوات.

ولكنا نقول لهم:

أفيقوا يا رفاق.. إن اليسار سقط فى العالم كله.. والشيوعيون يفقدون المقاعد فى جميع البرلمانات..

فى جميع الدول.. وليس فى مصر وحدها..

وفى الكرملين الأم.. يتراجع جورباتشوف، ويخلع عن نفسه شعاراتكم..

واليسار الذى تبقى نشطًا عاملاً فى الساحة هو أمثال الألوية

الحمراء، وغيرها.. بجرد خلايا تخريب، وإرهاب، وخطف وسيارات ملغومة.

أفيقوا..

إن العالم تغير.. فالحقوا بالقطار قبل أن يكنس التاريخ ما تبقى من السيرة العطرة، ويذهب بها إلى البالوعة.